

مظاهر الحياة الروحية



إنَّ أهم مظاهر الحياة الروحية هي الآتية:

أولاً: الاستغراق في الله بالتأمل في صفاته مثل التأمل في عظمة قدرته وأفعاله ومخلوقاته ودقة صنعه وإبداع خلقه ودقة علمه الذي يسري إلى كل جزء من أجزاء الكون وفي أعماق نفس الإنسان (وعنده مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ) (الأنعام / 60-59)، (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) (ق/ 16).

وكلما زاد الإنسان علماً وزاد تأمله في علم الله زاد خشوعاً وإجلالاً وتقديساً (إِنَّ السَّادِّينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّادًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَدْعُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) (الإسراء / 109-107). ولهذا كان لقمان يوجه ابنه عند تربيته تربية إيمانية روحية إلى التأمل في دقة علمه تعالى ليزيد خشوعاً وإجلالاً وتقديساً (يَا بُنَيَّ إِنَّنِي أَنزَلْتُكَ مِنْ تَلَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنُ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَا أُمَّةَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) (لقمان / 16). إنَّ الإنسان عندما يتأمل في هذه القدرة العلمية الهائلة ليقشعر جسمه لفرط تعظيم الله وإجلاله ولهذا فالذين يتأملون في مخلوقات الله وعجائب مخلوقاته يزيدون شعوراً بالإجلال وذكر الله في قيامهم وقعودهم وسيرهم. ولهذا قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا

وَقُوعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (آل عمران/ 191-190).

هذا الاستغراق في الله يجعل الإنسان يحيا في عالمه بالليل والنهار ذاكراً وساجداً وداعياً ومقدساً ومعظماً ومرتبلاً، لقوله تعالى (لِيَسْئَلُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ فَرِيحَةٌ يَتَلَوْنَ آيَاتِ اللَّهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) (آل عمران/ 113).

وعند يستغرق الإنسان في عالم الله على هذا النحو ينسى عالمه الحسي وهمومه ومشكلاته الدنيوية، وينسى نفسه لأن روحه تحيا في عالمها الذي تنزع إليه بالطبيعة وتميل إليه بالفطرة.

ثانياً - أداء العبادات المختلفة المفروضة مثل الصلاة والصوم وما إلى ذلك:

إنَّ العبادات غذاء الروح فيها تتصل بالله أو بالروح الأعظم وتستمد منه العون والمدد والقوة خاصة عندما يؤديها بالإرادة الخالصة شكراً لله لما عرف من كثرة نعمه وعظمه أفعاله وصفاته شاعراً في نفسه أنَّهُ ولو لم يطلب منه الله تلك العبادات وجوباً لوجب عليه أن يعبدَه ويقدرَه ويعظمه لاستحقاقه تعالى ذلك التعظيم والتقدير. ثمَّ أنَّ الإنسان عندما يدرك أنَّه في حالة العبادة يتصل بالله بالتطهر من جميع الأنجاس الحسية والرزائل ظاهراً وباطناً، فإنَّ روحه تنشرح عندئذ وتبتهج لتطهرها من تلك الرذائل والأنجاس والمآثم لأنَّها علل الروح، وأسباب أمراضها كما يشعر الإنسان عندئذ بالانشراح والابتهاج عندما يشفى من الأمراض ويبتعد عن أسبابها وعللها، ولهذا يشعر الإنسان بعد أداء العبادة بتلك الإرادة وتلك المشاعر بالقوة والنشاط والابتهاج، كما يشعر بقوة الإرادة والاستعلاء على جميع الأهواء والنزوات ودوافع الغرائز الحسية لأنَّ الروح أخذت غذاءها عندئذ.

ثالثاً - حياة الفضيلة والاستغراق في الأعمال الخيرة وحبِّ التضحية في سبيل الأعمال الصالحات وتقديم الخيرات والإسراع فيها:

ذلك أنَّه كلما ابتعد الإنسان عن الرذائل والمساوئ ظاهراً وباطناً وعمل الخيرات بإرادة خيرة ورغبة أكيدة في الخير زاد ابتهاج الروح ونشاطها وطاقاتها وحيويتها، لأنَّ من مقتضى صفاتها التصاق بالرزائل والانشراح بالفضائل. ولهذا نجد الله سبحانه وتعالى علّق فلاح الإنسان في هذه الحياة والآخرة باجتنب الإنسان الرذائل والالتزام بالعبادات ثم عمل الخيرات، وذلك إذا فعل هذا وذاك عن إيمان ورغبة وإرادة خيرة، قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلْأومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَواتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (المؤمنون/ 1-11).

رابعاً - الالتجاء إلى الله في السراء والضراء بالدعاء والذكر:

إنَّ الإنسان عندما يدعو الله خوفاً من عذابه ليغفر له خطاياه ويعفو عن ذنوبه وهو واثق من عفوهِ والتجاوز عن سيئاته يزيده ذلك أملاً في الفوز برضائه والدخول في جناته، كما أنَّ دعوته له بتحقيق آماله ونجاته من كلِّ بلاء ونصره على أعدائه، وهو إذ يدعو واثق من قبول دعائه إيماناً بقوله تعالى: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر/ 60). ولهذا دعا الله الإنسان إلى الوقوف بين يديه داعياً وطالباً منه مغفرته ورحمته، فقال: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (الكهف/ 28).

وذكر اﻻ يكون عند تذكر نِعم اﻻ على الإنسان في الرزق والصحة والتوفيق والتأييد والنصر وعند التفكير في صفاته وأفعاله وصنائه وإبداع مخلوقاته وجمال مصنوعاته فإذا كان الذكر في مثل هذه الحالات يجب أن يكون كل ذكر اسم اﻻ مقترباً بتذكر نِعمة من نعمائه أو فضل من أفضاله أو صفة من صفاته أو فعل من أفعاله، فإن هذا الذكر هو الذي يجدد الروح ويجلوها ويصفيها ويزيدها رقباً وارتباطاً باﻻ ومن ثم تحيا الروح في حالات الذكر وتدخل في حياة روحية. أمّا إذا كان الذكر مجرد ترديد اسم اﻻ باللسان آلاف المرات، كما هو عادة بعض أصحاب الطرق الذين يذكرون بألسنتهم، وعقولهم غارقة في المنافع الدنيوية وقلوبهم مشغولة بأشياء مادية لا باﻻ، فهذا الذكر لا يدخل الروح في الحياة الروحية ولا يؤثر في تجدد نشاطها. ولهذا نجد الفيلسوف الألماني كانط يهاجم هذا النوع من الذكر والتسبيح فيقول: "إن الناس يريدون عبادة اﻻ ويسبحون بحمده ويعظمون قدرته وحكمته العالية بدون أن يفكروا كيف يدبر هذه العوالم ويقوم فيها سلطانه، بل إنهم فوق ذلك لا يعلمون تلك القوة ولا تلك الحكمة ولا يدركون أنفسهم عناء البحث فيهما، أن الترتيلات والترنيمات الصادرة من هؤلاء أن هي إلا مخدرات كالأفيون ينمي الوازع المخلوق فيهم ويقتل بصائر هؤلاء القوم أو كنمارق عليها ينامون ناعمين وادعين".

ولهذا كلاًه نجد أن الآيات التي دعت إلى ذكر اﻻ جاءت عند التذكير بمختلف آلائه ونعمته وصفاته وأفعاله ليكون الذكر بمثابة الشكر وليؤثر في الشعور ويجدد المشاعر الروحية وينميها. ولندكر طائفة من تلك المناسبات التي ورد فيها الطلب بذكر اسم اﻻ فقال تعالى: (فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (البقرة/ 239)، (وَإِذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَزَلَّ عَلَيْهِكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ) (البقرة/ 231)، (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ الْإِلَهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الأعراف/ 69). وذكر اﻻ ليس مجرد ذكر اسم اﻻ باللسان بل الذكر الحقيقي أن يكون في النفس مقترباً بمشاعر الإجلال والخشوع، (وَإِذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) (الأعراف/ 205). وهذا الذكر ليس بالسبحه وبالصوت المرتفع والصراخ كما يفعل أصحاب الطرق الصوفية، وإنما يكون أساساً بالشعور بالعظمة، وعند تذكر نِعم اﻻ على الإنسان سواء كان المرء عندئذ قائماً أو قاعداً أو نائماً ولهذا قال تعالى: (فإذا قضيت الصلاة فادكروا اﻻ قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) (النساء/ 103). وأن يكون ذلك الذكر مقترباً بالتفكير في مخلوقات اﻻ أو في نعمه كما قلنا وفقاً لقوله تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (آل عمران/ 191).

المصدر: كتاب فلسفة الحياة الروحية